بين اللّغة واللَّهجة

أ. د. مازن المبارك(*)

اللهجة: اللسان (أيِ: اللغة) كما في تاج العروس. وفي الحديث النبوي: «ما من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

واللهجة: جَرْس الكلام، ويقال: فلان فصيح اللهجة؛ واللهجة هي لغته التي جُبل عليها واعتادها ونشأ عليها.

والجرْس: الصوت. والجرْس والتجرّس كالتكلّم، وجَرَس وتجرَّس: إذا تكلَّم بشيءٍ وتنغَّم، والجَرَس بالتحريك: الذي يعلَّق في عنق البعير. ا.هـ من التاج.

وكثيرًا ما نجد في كتب اللغة ومعجماتها ما يدلّ عندهم على ترادف الكلمتين، وهما اللغة واللهجة، يقولون: «وهي لغة تميم، أو لغة هذيل» أو «وهي لهجة ربيعة أو بَهراء».

ولم تكن الخلافات الصوتية عند العرب لتؤثر في وحدة اللغة، وإن كانت عندهم تؤثر في درجة الفصاحة. وقد نقل السيوطي في (المزهر) عن ثعلب قوله: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وتلتلة بهراء، وكسكسة ربيعة، وكشكشة هوزان، وتضجُّع قيس، وعجرفية ضبّة». [المزهر ١/ ٢٨].

(*) ألقى الأستاذ الدكتور مازن المبارك عضو مجمع اللغة العربية بدمشق المحاضرة في قاعة مجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ ٥/ ٧/ ٢٠٢٣م.

فالعنعنة: لفظ الهمزة عينًا. (أعن؛ أي: أأن).

والتلتلة: كسر التاء في الفعل المضارع (تِفعلون).

والكسكسة: إبدال كاف المؤنث عند الوقف سينًا (أبوسِ؛ أي: أبوكِ).

والكشكشة: إبدال كاف الخطاب للمؤنث شينًا (عيناشِ بدل عيناك، وجيدشِ بدل جيدُكِ).

والتضجُّع: الإمالة، والعجرفية: الجفاء في الكلام.

وهي أوصاف لأصوات الحروف تظهر في النطق عند التلفّظ بالكلمة.

ولقد عبّر الفراء بما يدلّ على أنهم يعبّرون عن اللهجة باللغة عندما قال: «كانت قريش تسمع في مواسم الحج والأسواق لهجاتٍ كثيرةً، فكانت تنتقي من (اللغات) ما تستحسنه، وتنفي ما تستقبحه من مستبشع (اللغات) وقبيح الألفاظ» [المزهر ١/ ١٣٣].

وأدلّ على ذلك أنّ غير لغويّ منهم سمّى كتابه: «اللغات» كالفرّاء والأصمعي وابن دريد. وليس اختلاف لغة عن لغة عندهم - أي: لهجة عن لهجة - سوى اختلاف صوتي يبدو في الإمالة، أو تخفيف الهمزة، أو إبدال حرف من حرف، أو حركة إعراب بغيرها.

أما المحدَثون فأكثرهم على أن اللغة أعمّ من اللهجة، وأن اللهجة ليست سوى الصفات الصوتية للغةٍ من اللغات في بيئة من البيئات؛ أي: أنهم قصروا معنى اللهجةِ ودلالتها على طريقة النطق؛ أي: على الصوت، وهي الدلالة التي عبَّر عنها المعجم بقوله: «اللهجة: هي الجرْس، أو هي جرس الكلام».

وخلاصة ذلك أنه إذا كانت لدينا لغة واحدة مشتركة في كلماتها ودلالاتها وأساليبها، وكانت تُلفظ بطرق مختلفة في بيئة تلك اللغة، وتتباين حروفها بصفاتها ومخارجها، قلنا: إن في تلك اللغة لهجاتٍ مختلفةً.

وأما إذا اختلطت الكلمات، ودخل في اللغة ما ليس منها، واختلفت الأساليب متنكّرةً لأصول تلك اللغة في أبنيتها وقواعدها، مما ولّد لغة جديدة هجينة في الألفاظ والأساليب، فلم يعد من الجائز أن نسمّيَ هذا الخليط الجديد (لهجةً)؛ لأنه أصبح في الحقيقة (لغةً) لا يقتصر الفرق فيها بين بيئاتها على الصفات الصوتية في النطق، بل تعدّاه وتجاوزه إلى البناء اللغوي كلّه، بأبنيته وصياغتها، وبتراكيبه وغرابتها، ومخالفته لصفات الحروف ومخارجها، بل وبمعاني كثير من الكلمات ودلالاتها. وهذا ما نراه اليوم في الفروق بين اللغة العربية وما يسمَّى خطأً (اللهجات العامّيّة)، لأنها لم تعد (لهجات)، بل هي في الواقع (لغات) هجينة فيها كثير من اللغات الدخيلة التي خالط أصحابُها العربَ في أقطارهم المختلفة، وفيها ما حُرِّف وشوِّه، وما خرج عن أصالته، وما اختلفت دلالته، وما فسد تركيبه.... فكيف نسمّيه لهجة؟! إن اللهجة في مثل الإمالة، أو تخفيف الهمزة، أو تفخيم الحرف، أو ترقيقه، أو غير ذلك من الحركات الصوتية... بل قد تصل إلى الاختلاف في دلالة كلمة من الكلمات بين لهجتين، ولكنها لا تتجاوز ذلك إلى ما نراه اليوم من الاختلافات بين الفصيح وعامّياتنا في الأقطار العربية.

وإذا أردنا توضيح ذلك بالمثل قلنا: إن ممثّلي الدول العربية في الجامعة العربية يتعاقبون على الكلام، ويتحدث كلّ منهم بلهجة قطره العربي، فتسمع لهجة الشاميّ والمغربي والجزائري والعراقي والسعودي واللبناني والأردني والخليجي، فلا يفوت أحدًا منهم ولا منّا كلمة يقولها واحد منهم، لأنهم جميعًا يقرؤون بياناتِهم باللغة العربية الواحدة على اختلاف لهجاتهم. وأما لو تكلم كل منهم بلغة قطره الدارجة التي يعرفها في قطره فلن نفهم الكثير مما يقولونه... ولقد جرّبت هذا بنفسي وخاطبت أهل

تلك الأقطار المختلفة، وأقسم أنني لم أفهم جملًا كثيرة قالها المتكلّم العراقي، ولا جملًا كثيرة جدًا قالها المتكلم التونسي... بل لقد وصل سوء التفاهم بيني وبين الأخ التونسي إلى أن قال لي: «يا أخي دعنا نتكلم الفرنسية لنتفاهم»؛ لأننا عجزنا عن التفاهم بالعامّية أو بالعامّيّتين! وكلنا نعلم أن في دول الخليج لغةً فيها مفردات إنكليزية كثيرة وفارسية وغيرها ينطق بها الناس وكأنها من مفردات لغتهم، وكذلك في العراق وغيرها من الأقطار العربية التي زرتها وسمعت من عاميّاتها كثيرًا مما لم أفهم معناه، أفنقول عن هذه اللغات: إنها لهجات، وهي ليست متباينة بالأصوات أو بلهجة النطق فقط؛ بل إن فيها الكثير من المفردات الدخيلة؟

إن اللهجات العربية في أقطار العرب تكاد تكون لغات غير العربية التي يعرفها العرب. ونحن نقبل اللهجات العربية بمعناها الصحيح المقتصر على الصفات الصوتية؛ لأنها أمر طبيعي لا يؤثر في وحدة اللغة، ولكننا لا نقبل المغالطة الخطيرة التي تجعل من غير العربيّة في ألفاظها وكلماتها ودلالاتها ما تعدّه لهجة، وهو في حقيقته لغة!

وفي ضوء ما سبق، وما تحدّد من مفهوم اللغة وكون اللهجة صفةً مقبولة وطبيعية في كل اللغات، نستطيع أن نتحدث عن العاميّات في بلادنا العربية على أنها أقرب إلى أن تكون (لغة) منها إلى كونها (لهجة) من لهجات لغتنا العربية الواحدة.

وإنه كلّما اشتدّ الشعور والشوق والرغبة إلى وحدة الأمة، يجب أن تشتدّ الرغبة إلى الأخذ بالعناصر الموحِّدة، وإلى نبذ كل ما يباعد أو يفرّق بين أقطار الوطن الواحد وشعوب الأمة الواحدة.

وإن من أهم عوامل توحيد الأمة توحيدَ اللغة؛ لأنها أقوى عوامل الوحدة

القومية، والتقارب الفكريّ، ووحدة الثقافة؛ وتوحيدُ اللغة لا يكون بتعداد اللغات، ولا يضرّه تعداد اللهجات؛ لذلك شوّه أعداء الأمة دلالات الكلمات، وأوهمونا أن عاميّاتنا لهجات، لنُبقِيَها، ولنقبل بها ولنشجّعها ولنكتب بها، ولنصنع لها المعاجم والموسوعات... والحق المبين أن ذلك كله خطأ مبين... وأنهم ألبسوا اللغات العاميّة ثوب اللهجات تمويهًا وتزويرًا وخداعًا!

ولا شك أن إتقان الأجانب اللغة الدارجة؛ أي: ما أتقنوه من لهجات، يجعلهم أكثر قدرة على الاختلاط الاجتماعي، وأكثر قدرة على التخفّي بالزيّ الذي يريدون، والعيش بطمأنينة وأمان، ومداخلة المواطنين في شؤونهم وعلاقاتهم وأفكارهم...

ولست أنسى ما كان يُطلَبُ إليّ، بل يُضغط به عليّ، حين كنت مديرًا لمدرسة تعليم الأجانب اللغة العربية، لأسمح بممارسة تعليم العربية السورية (أي: عاميّة أهل الشام)، وأجعل ذلك مقرّرًا دراسيًّا كغيره من المقرّرات!

لقد كنت أقول للملحقين الثقافيين الأجانب الذين كانوا يتناوبون في إثارة ذلك الموضوع: إننا نعلّم ما يستطيع المتعلّم به أن يقرأ في صحفنا ومجلّاتنا وفي كتب تراثنا وحضارتنا، ولو سافر إلى بلده، وأنتم تريدون أن يتعلّم ما يعيش به في بلدنا لسنتين أو ثلاث، ثم لا يفيد منه شيئًا إذا رجع إلى وطنه! إننا نحب أن يحمل معه لغةً يعيش بها مع العرب في كل أقطارهم وكل عصورهم... واثقين أن من تعلّم العربية أحبّها، ومن أحبَّها أحبّ الناطقين بها، كما يحبّكم منا من تعلّم لغتكم!

إن تمزيق اللغة إلى لغات تفريقٌ للناطقين بها إلى شعوب، وتمزيقُ وطنها إلى أوطان.

إن السماحَ لهذه (الفوضى) اللغوية التي يعيشها الوطن العربي اليوم

واختلاطَ الفصيح بالعاميّ والأجنبي والرقميّ وكل دخيل، لأمر عجيب! إنه يجعلنا ويجعل مجتمعنا الواحد مُجتمَعَينِ على الأقل: أحدهما نجده في جامعاتنا ومدارسنا ومجلّاتنا ومطبوعاتنا، والآخر تلقاه في بيوتنا وشوارعنا وأسواقنا ووسائل اتصالنا، بل في إعلامنا في كثير من الأحيان!

وإن انتشار العامّيّات اليوم في الأقطار العربية يباعد بين شعوبها، وكلما نمت العاميّات وسيطرت تباعد العرب وتفرّقت شعوبهم كما تفرّقت الوحدة النقدية فيما بينهم، بين ليرة وجنيه وريال ودرهم ودينار! وكما تفرّقت أنظمة الحكم بين دولهم فأصبحت ملكية وإمارة وسلطنة وجمهورية... ويُخشَى أن تصبح لكل دولة لغتها، إذ لم يبقَ لهم من دليل على وحدتهم إلّا هذا اللسان!!

ومن الجدير بالذكر أن أعداء العرب يفرحهم هذا التفرّق اللساني ويُسرّون به ويسعَون إليه، وقد كتب دبلوماسي بريطاني عمل في البلاد العربية مقالةً في مجلة الأيكونومست الإنكليزية ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد الله الرخيص عضو مجلس التنمية في جامعة هارفارد، ونشرها في ٢٩/ ٩/ ٢٠٢٢، وقد جاء فيها: «تُعدّ العربية على الورق من أكثر اللغات انتشارًا في العالم، ويتحدّث بها أكثر من ٤٠٠ مليون مسلم. لكن العرب اليوم يتحدثون عددًا كبيرًا من اللهجات، واللغة العربية تتآكل وتذوب في لهجات هجينة، مما يمهد لانتشار اللغة الإنكليزية، والعربية قد تكون لغة ميتة في غضون قرن من الزمان. والحروب الأهلية في العراق وسورية أجبرت الملايين على ترك التعلّم، وخاصة في بغداد ودمشق اللتين كانتا قلعة حصينة للغة العربية، ولم يستطيعوا أن يحافظوا على لغتهم كما حافظ على لغته كل من اليابان والصين. إن كثيرًا من الخليجيين يتكلمون الإنكليزية، وأكثر الذين يتوظفون في إدارات الدولة في البحرين وغيرها لا يتقنون العربية! والسعودية أصبحت تعلّم الإنكليزية بدءًا من

السنة الأولى في المدارس الابتدائية، وأكثر الأغنياء يسجلون أبناءهم في مدارس تعلم بالإنكليزية.

لقد تسرّبت مجموعات اللهجات العامية إلى الدوائر الحكومية والإعلام ودور النشر، ويزداد نشر كتب بهذه اللهجات، وكذلك الإعلانات. إن ناديا كامل فازت بجائزة كبرى في مصر سنة ٢٠١٩م عن رواية وضعتها باللهجة المصرية الهجينة!

وكذلك أصبحت أكثر وسائل التواصل الاجتماعي بلهجات مكتوبة بحروف أجنبية!».

ولعل من الجدير بالذكر هنا أن بعض زملائنا العرب يرون فيما يسمعون منا وفيما يقرؤون مبالغة في أمرٍ أبسط بل أهون من أن نقف عنده، قائلين: إن كل اللغات فيه الفصيح أو الصحيح والعامّي، وإنهما لغتان تتعايشان، وأنْ لا ضرر في ذلك، ولا خطر على الفصيح من العاميّ!

وأرى أن حسن الظنّ هنا ورطة، بل غفلة، لأن الذين يقولون ذلك أغمضوا عيونهم عن أن الدول التي يتحدثون عنها لا تسمح لعامّيّاتها أن تظهر مكتوبة على الإطلاق، ولا تسمح لإعلامها بنشر شيء حتى في الإعلانات إذا كان مخالفًا للصحيح من لغتهم...

وهل يعلم المسالمون المتسامحون مع العامّيات العربية أن أولئك الذين يتحدثون عنهم من الغربيّين يقفون من عامّيّاتنا موقفًا مضادًّا تمامًا لمواقفهم من لغاتهم؟! إنهم بقدر حرصهم على سلامة فصيحهم يدعون إلى تشجيع عاميّاتنا، وينشئون المعاهد في بلادهم لتعليمها كمعهد تعليم الأمازيغية في باريز، ومعهد شملان في لبنان، وغيرهما، وأنهم يستثمرون غفلتنا ويستغلّون طلابنا وموفدينا والدارسين عندهم ويشجعونهم على

وضع المؤلفات في هذه العامّيّات وصولًا إلى نقلها من (لهجات) إلى كونها (لغات) ذات قواعد وأصول، وإنهم يوزعون الدارسين من العرب ليكتب كلّ منهم عن لغة منطقة يعرفها، لتكون مؤلفاتهم مراجع للمستشرقين والدارسين منهم، ولتكون للعرب بعد زمان لغات تتوزع على أقطارهم كما توزّعت لغة أوربا القديمة على أقطارها، فكانت لغاتٌ لا يجمعها جامعة!!

وإن لم يكن ذلك كذلك، فهل يمكن الاعتقاد أن الرسائل التي وضعها الدارسون العرب تفيدنا أو تفيد العلم كما تفيد أعداءنا من باحثين ودارسين ومستشرقين ومتجسّسين؟ ماذا يفيد العلم من جهود السادة الذين وضعوا الكتب الآتية؟! ولكن كيف نلوم أمثال هؤلاء الكتّاب، وهم يرون في دوَلِهم من ينشر معاجم بالعامية، ومنهم من يضع للعامّية موسوعة تجمعها وتفسّرها وتسهّل انتشارها... وتعلّمها لمن لا يعرفها؟

وهذه أسماء رسائل جامعية حصل مؤلّفوها على درجات الماجستير أو الدكتوراه أو كلتيهما، أعرضها لبيان مدى الجهود المبذولة في خدمة المخطّطين لتمزيق العرب بحجّة الدراسة العلمية للّغة! ولنرى كيف يضع أصحاب العقول الاستعمارية أو المعادية للعرب برامجهم، ويسخّرون العلم بمعاهده وجامعاته والمستشرقين والأساتذة المشرفين على الرسائل الجامعية عندهم لتنفيذ مخطّطاتهم. إن هذه الرسائل لن توضع في المكتبات على أنها كتب للعلم فحسب، ولكنها قبل ذلك ترسل إلى الجهات الاستخبارية لتحليلها وتدريب العملاء عليها، وبذلك يفيدون منها علميًّا بنشرها ومزاحمة العربية بها، وسياسيًّا بتدريب جواسيسهم على إتقان الحديث بها للاندماج في المجتمعات المتكلّمة بها:

١- لقد أخرجت شركات النفط، كشركة البترول العربية، وشركة

آرامكو، وشركة نفط الكويت، وغيرها عددًا من الكتب والرسائل باللهجات المحلّية لحاجة موظفيها، كما ادّعت.

٢- وضع العشرات من أبناء العرب رسائلهم التي نالوا بها درجات الماجستير أو الدكتوراه، أو كلتيهما في موضوعات تخدم غايات لم تعد خافية على أحد، وكلّها أخذت من أعمارهم وجهودهم ما يفيد أعداء العرب أضعاف ما أفادوا به العلم، إن كانوا أفادوه بشيء!

١ - دكتوراه من جامعة لندن عنوانها «لهجة القاهرة» د. إبراهيم أنيس.

٢ و٣ -ماجستير ثم دكتوراه، إحداهما «لهجة الكرنك»، والثانية «لهجة عدن» د. تمام حسّان.

٤ و٥ - ماجستير ثم دكتوراه من جامعة لندن، إحداهما «لهجة الجعفرية»، والثانية «لهجة النوبة» د. عبد الرحمن أيوب.

٦ - دكتوراه من جامعة لندن عنوانها «دراسة نحوية للهجة اللبنانية» د. كمال بشر.

٧ - دكتوراه من ألمانيا عنوانها «لهجة الفلاحين في محافظة الشرقية» د. فهمي أبو الفضل.

٨ - دكتوراه بعنوان «من لهجات الجزيرة العربية في السودان» د. عبد الحميد طلب.

٩ - ماجستير بعنوان «لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط» د. عبد العزيز مطر.

١٠ - رسالة من جامعة لندن بعنوان «لهجة الرياض» د. سعيد بدوي.

١١ - رسالة من جامعة لندن بعنوان «لهجة غامد وزهران» د. عبد الله الندوي.

١٢ - أبحاث عن لهجة حائل، دكتوراه من لندن د. بيتر عبود.

١٣ – رسائل في العربية العامّية. محمد عياد الطنطاوي، مدرّس في جامعات روسيا.

١٤ – اللغة العربية العامّية في مصر والشام، لميخائيل صباغ، مدرّس في باريز.

١٥ – لهجة كفر عبدا في لبنان، لميخائيل فغالي، مدرّس في جامعة بوردو بفرنسا.

وشارك في هذه (المجهودات العلمية!) مستشرقون وعلماءُ من أمم الغرب والشرق، فوضعوا كتبًا في اللهجات العربيّة، منها:

- كتاب عنوانه «دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية» لجونستون.
- وكتب عن لهجات مصر وعامّيتها كل من الإيطالي نالليno، والروسي نفرونسكي، والألماني ليتمان، والإنكليزي ميتشل، والأمريكي هاريل.
- وكتب الإيطالي كانتينو «لهجة تدمر» و«لهجة دمشق» و«لهجة حوران».
- وكتب ماكس مولر «لهجة القدس».
- وكتب مايستر «لهجة بغداد».
- وكتب الروسي نيقولافتش برازين «لهجات الجزيرة وما بين النهرين».
- وكتب صاموئيل ماتسون «دروس في اللهجة العامية ببيروت».
- وكتب فيشر الألماني «لهجة المغرب الأقصى».
- وكتب لويس جاك برنار «لهجة الجزائر».
- وكتب هانز شتومه «النحو والصرف في اللهجة التونسية» و«في اللهجة الطرابلسية والمغربية، وحضرموت».
- ووضع برجستراسر «الأطلس اللغوي للهجات السورية وفلسطين»

وذلك ليبيّن الحدود الجغرافية فيما بينها، ثم ينظر في الفروق التي تميّز كل لهجة، أي: كلّ منطقة، وليرى بعد ذلك: هل بقيت مدينة أو قرية لم تشملها الدراسات، ولم يقفوا عليها؟!

إنه عمل منهجيّ منظّم، يقومون به منذ عشرات العقود من السنين، ويسخّرون له علماءهم وجامعاتهم ومراكزهم الثقافية، ومَن استطاعوا خداعه أو إقناعه من الدارسين والطلاب العرب المبعوثين للدراسة والحصول على الشهادات العليا = ليصبّ كل ذلك بنتائجه في قنوات التوجيه السياسي عامةً، من أجل شعاراتهم وقنصليّاتهم وموظفيها، وقنوات المخابرات التجسّسية خاصةً لتوجيه من أتقنوا تلك اللهجات إلى مناطقها في بلاد العرب.

ولا شكّ أن الدّاعين إلى التكلّم بالعاميّة وباللّغات القطرية المحلّية، والمروّجين لها، إنما يقفون في وجه الشعور الذي تخلقه اللغة الواحدة في نفوس الناطقين بها من وحدة أو تطلّع إلى وحدة في الفكر وفي الثقافة وفي المصير المشترك، إنهم يصدّون عن استقطاب اللغة العربية الموحَّدة؛ لأنها الموحِّدة لشعوبها الناطقة بها.

لمَّا كان للغة الواحدة أثرها في وحدة الناطقين بها لسانيًّا وفكريًّا ووطنيًّا وقوميًّا وسياسيًّا، مما يجعلهم على تباعد أقطارهم كلًّا متراصًّا باسم (أمّة)، ووحدةً موحَّدة باسم دولة، وكان العرب يملكون هذا المؤهِّل لمثل هذه الوحدة الثقافية والفكرية والقومية من الخليج إلى المحيط = فقد كان على أعدائهم أن يسدّدوا السهامَ، سهام الغدر والمكر إلى الرَّابطة الجامعة لهم والموحِّدة لأقطارهم، والتي هي اللغة التي سعى الأعداء إلى أن يملكوا مثلها لتوحّدهم؛ فلما عجزوا عن إيجاد لغة (الإسبرنتو) لجؤوا إلى وحدة النقد بدل

وحدة اللسان، فاتخذوا من (اليورو) جامعًا يمثّل حضارتهم ونزعتهم المادّية... إنهم لم ينقموا على العرب إلّا أنهم إذا أدركوا حقيقة ما يوحّدهم لم يقف في وجه تقدّمهم لقيادة العالم حضاريًّا، ولتقدّمهم عالميًّا قوّة!

إنهم راحوا يوجهون سهامهم إلى كلّ ما يؤدي إلى وحدة العرب، ولمّا كانت اللغة من أقوى تلك الوسائل، كانت موضعَ طعنهم، فراشوا لها سهامًا لا عدَّ لها؛ منها ما يوهم بصعوبة قواعدها النحوية والإملائية، ومنها ما يحرّف دلالات الكثير من كلماتها، ونشر ذلك في جميع وسائل الإعلام، ومن أبرزها على المستوى الحكومي والشعبي إنشاء المدارس والمعاهد والمراكز الثقافية التي تعلّم اللغات ومنها العربيّة التي مزَّقوها بحسب لهجات أقطارها إلى مغربيّة ومشرقيّة، ثم مزَّقوا كلًّا منها بحسب أقطارها، ثم مزَّقوا الوطنيّة أو القطريّة إلى لهجات مدنها وقراها. ووضعوا لذلك البرامج التعليميّة، وأوهموا العالَم أنهم يقومون بدراسة الألسن في العالم دراسة علميّة، ويدرسون الأصوات دراسة مَخبريَّة... وخَدَعَ ذلك الكثيرين من المربّين والجامعيّين، وطغت على الدراسات اللغوية في جامعات الوطن العربي البرامج والمناهج التي تعنى بما تتصف به اللغات الإنسانية عامَّة على ما كان يدرّس في تلك الجامعات من صفات اللغة العربية وخصائصها وأسرارها تحت اسم «فقه اللغة» حتى ضاع هذا الاسم اليوم في معظم جامعاتنا ومعاهدنا العربية، إن لم أقل: فيها كلّها!

ونحن لا نرى مانعًا من أن تُدرَس اللغات كلها فيما يسمَّى (علم اللغة)، وهو يشمل كلّ ما تشترك فيه اللغات؛ لأنه علم اللغة العام الذي لا يخصّ لسانًا دون الآخر، وفيه إذا شاء علم اللغة المقارن، ولكن هذا كلّه لا يمكن أن يكون بدلًا عن علم «فقه اللغة» الخاصّ باللغة العربيّة. وكذلك بدعة

(اللسانيات والصوتيات)، وهي كلّها لا تغني عن «فقه اللغة» الذي يدخل دارسُه حرمَ اللغة العربية، والذي تاه اليوم وسط تلك المسمَّيات»!

وأبلغ الخطر في كل ما نرى أن أصحابه والقائمين به يلبسون ثياب العلماء، ويختفون وراء البحث العلمي كأسلافهم الذين صرفوا السنين من أعمارهم والكثير من جهودهم ليعدّوا الرسائل الجامعية لنيل درجات الماجستير والدكتوراه وفيما يحقق آمال الأعداء وطموحاتهم! وأنا لا أتَّهم أحدًا منهم، فالله أعلم بالسرائر، ولكني أتّهمهم بالغفلة... وأحكم على نتائج أعمالهم وما حقّقته وتحقّقه من فوائد علمية للغتهم العربية، ومن فوائد عملية لأعدائها وأعداء شعوبهم العربية ووحدتها.

ولقد كان من وسائل مزاحمة العربيّة وزحزحتها عن مواقعها في دور سيادتها في الوطن العربي، أن يضايقوها بكثرة الضرائر من محليّات عاميّات، ومن ضرائر أجنبيّات! ومما جدّ من وسائل أخرى ولغات شتّى، لا نسب لها، بعضها ملقّح بالإنكليزية أو بالأجنبيّة عمومًا، وبعضها تستبدل به الأرقام... حتى أصبحت وسائل الاتصال على الآلات الهاتفيّة الذكيّة غارقة في فوضى لغوية عجيبة!.

وإذا تركنا هذا الجانب المكشوف للسّامعين جميعًا، ووقفنا عند ما هو أبعد من ذلك، وعند ما يخطّط لنا وللغتنا في المجالات الرسمية، والإدارات الحكومية، والجامعات الأجنبيّة التي يتلهّف أبناؤنا للالتحاق بها، ونيل شرف الحصول على الشهادات والإجازات الجامعية منها = تبيّن لنا الوجه الحقيقي للمراد من خلط السُّمِّ بالدَّسم، وتسخير العلم لتمزيق الأمم!، وأدركنا أنها سياسة مخطَّط لها، ذات برامج وخطوات، تطبق في داخل أوطاننا وخارجها، وعرفنا كيف يُسخّر العلم لخدمة أهداف لا إنسانية ولا أخلاقية ولا علميّة؟!

فما زال أعداؤنا يسعَون جادّين في محاربة لساننا، وما زالوا حريصين أشدّ الحرص على ألسنتهم ألَّا تنحرف، وعلى لغاتهم ألّا تشوّه أو تزاحَم؛ فكل قوانينهم ولا سيما في ألمانيا وفرنسا تحرّم استعمال كلمة دخيلة على لغتهم، وتمنع المساس بسيادتها. وانظر إلى الفرق بيننا نحن العرب وبينهم في المواقف من اللغة القومية لكلٍ منّا:

١- إذا حدَّثت ألمانيًّا في الشارع عن الطريق مثلًا، وسألته بالفرنسية أو الإنكليزية فإنه لا يجيبك ولا يلتفت إليك!؛ وإذا سأل إنكليزيّ عربيًّا في بلادنا سؤالًا بعربيّةٍ مكسَّرة، بادر العربي إلى إجابته بإنكليزيّته الركيكة مفتخرًا بمعرفتها!

٢- لا يُسمح أن يظهر لافتة أو إعلان عامٌّ بغير لغتهم، وشوارعُنا وأسواقنا ممتلئة بغير لغتنا!

٣- حدّث د. عمر شخاشيرو - وقد كان رئيسًا لقسم اللغة الفرنسية في كلية الآداب بجامعة دمشق -: أنه حين نوقش في رسالته التي نال بها الدكتوراه في باريز، طلب أحد المناقشين أن يُؤجَّل منح الدرجة ثلاثة أشهر؛ لأن إحدى الحركات على أحد الحروف كتبت على عكس الجهة التي تصحّ فيها، على حين أن مناقشي الرسائل الجامعية عندنا يعدّد كل منهم عددًا غير قليل من الأخطاء اللغوية أو النحوية، ثم يتخرّج الطالب بدرجة جيدة!

٤- إنك في بلادهم تشعر بسيادة لغتهم شعورًا تعجب منه لشدّة ما يملأ عليهم نفوسهم، وأين ذلك في أقطارنا العربية التي يتحدّث أكثر القائمين فيها على الفنادق والأماكن السياحية بغير العربيّة تطوّعًا وتفاخرًا، وتمتلئ شوارعنا بالإعلانات واللافتات بغير لغتنا؟!

٥- إننا نسمع بعض ممثّلي الدول العربية يتحدثون في المحافل الدولية بغير العربيَّة، ولا تجد مثل ذلك عند ممثّلي دولهم أيًّا كانت منزلتهم، علمًا أن العربية إحدى اللغات المسموح باستخدامها في تلك المحافل. ولكن الفرق فرق في الشعور بالاعتزاز والكرامة والانتماء عندهم، وبما يخالف ذلك عند ممثّلينا!

وإنه لمن المؤسف أن تسمع من بعض العرب مَنْ يقول: «إن الفصحى كانت سببًا من أسباب هزيمة العرب»!، ومن يقول: «حروف العربيّة متنوّعة باهظة التكاليف فلنهجرها إلى الحرف اللاتيني»، ومن يقول: «العامية ألصق بالشارع، وأرحب للتعبير عن أحاسيس النفس».

ولا شك أن هؤلاء القائلين بذلك وأمثاله عَمُوا عن أسباب نهضة الغربيّين وصمّوا عن سماع أقوال حكمائهم! ألم يسمعوا علماء الغرب وفلاسفته؟

فلقد قال فخته: «اللغة تجعل الأمة الناطقة بها وحدةً متراصّة؛ لأنها الحقيقة الوحيدة التي تربط عالم الأجساد وعالم الأرواح».

وقال: «اللغة القومية وطن روحيّ يُؤوي من حُرم وطنَه على الأرض».

وأما قادة الثورة الفرنسية فقد أذاعوا في بياناتهم نداءً قالوا فيه: «أيها الفرنسيون: أتقنوا اللغة الواحدة، وحاربوا اللهجات المحليّة».

إنهم جميعًا يربطون اللغة بفكر الناطق وبروحه، ولا يرَون فيها مجرّد أصوات تعبّر عن أغراض! إن الذين يصرفون العناية في دراسة اللغة إلى الأصوات يجب ألّا ينسوا أن الصوت لا قيمة له إن لم يكن تعبيرًا عن الفكر، وأن اللغة فكرٌ يوجّه السلوك، بل إننا نتحدث إلى أنفسنا حين نفكّر!، وأن وحدة اللغة تؤدي إلى وحدة الفكر، وهذه تؤدي إلى وحدة السلوك والمواقف.

إن العربية الفصيحة هي الدليل الوحيد اليوم على وحدة أمّتنا، وهي رمز

هذه الوحدة التي لا تعرف السدود ولا الحدود، ولا تفرّق بين أقطارها باللهجات المحليّة.

لذلك كان علينا جميعًا أن نسعى إلى بقاء العربية الصحيحة السليمة المعبّرة عن الوحدة، لأنها واحدة موحَّدة وموحِّدة = سائدة في كل مجالات حياتنا الثقافية والاجتماعية والتواصلية والإعلامية.

نحن اليوم أمام واقع يفرض علينا أن نتفاعل بجدّ ونشاط مع التقنيات التعبيرية الجديدة، ورَفْدَها بما تحتاجه من إجراءات أو آليات النهوض والمتابعة، سواءٌ أكان ذلك في الوسائل التقنية الذكية الجديدة أم في الإسراع بوضع المصطلحات التي تُورَّد إلينا يوميًّا بكميات كبيرة. إننا في عصر التقنيات، والعصر الرّقْميّ، وعصر الترجمة الآلية... ونحن ندّعي أن العربية لغة مطواع؛ تساعد بذاتيَّتها أو بخصائصها الذاتية وطرق التوليد والاشتقاق فيها على النماء والاستمرار.

لغتنا أسُّ ثقافتنا، وجزء من هويّتنا، ويجب أن تكون من أولويّاتنا المحافظة عليها؛ لأنها تمثّل الأمن القومي للوطن العربي كلّه، وسيادتها هي سيادته، وهي اليوم أمام معارك لا تنتهي من ضعف في التفاعل مع الواقع اللساني العالمي وما بلغه من رقْميات وتقنيات وآليات... ونحن نجتمع ساعة لنقرّ مصطلحًا، ثم لا يعيش، وللنهوض بالفصحى، ثم تنتشر العاميَّة؛ وللتعريب، ثم تمتلئ شوارعنا بالأجنبي.

إنه لا بدّ من وضع سياسة لغويّة تحفظ للعربيّة فقهها ومنزلتها، وتسخّر في دراستها المناهج والوسائل الحديثة، ولا تجعل من دراسات اللغات الأخرى ما يطغى على دراسة العربية... فلكلٍّ مكانه ومنهجه، ولا بدَّ أن تبقى الأولويّة للغة الأمّة الجامعة لشعوبها، والمعبّرة عن شخصيتها، والمرآة لثقافتها.

ولو أنصف المسؤولون اليوم لحاربوا العاميّات، ولاستبدلوا بالإمبراطورية العربية السياسية التي كانت للعرب في التاريخ ثم ضاعت، إمبراطوريةً لغوية جامعة للأمة، هي إمبراطوريّة اللغة العربية الفصحى التي تجمع شمل العرب من المحيط إلى الخليج. والفصحى هي التي تمثّل وحدة العرب حاضرًا نعيشه، وماضيًا نعتزّ به، وأملًا مستقبَلًا نتطلَّع إليه.

ولا نعني بها لغة الشنفرى أو الحطيئة، ولكننا نعني النطق بحروف عربيّة، وبلغة لا تعلو على لغة الصحافة المألوفة، إنها اللغة التي نسمعها في نشرات الأخبار من عواصم البلاد العربيّة، والتي بدأ بعض المذيعين بإفسادها بضَياع أصواتها، إذ يسرعون في النطق ظانّين أن السرعة تدلّ على طلاقة ألسنتهم، على حين أنها تدلّ على جهل المتحدّث بحقوق الحروف وبموسيقا اللغة الساحرة!، وبحقوق السّامعين في تَذوُّقِ السَّمع وحُسن الفهم.

* * *